التطور ، كان يتطرق في احيان كثيرة الى تناول الجانب السياسي ، مؤكدا عرضا ، الحقيقة العلمية القائلة بالعلاقة بين الاقتصاد والسياسة ! وبالاضافة الى ذلك ، فانه اوضح ، وفي المقدمة ايضا ، ان « عرض ثمار هذا التطور الاقتصادية والاجتماعية له وظيفة اخرى ، وهي المساعدة على تفسير الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية (خلال سنوات ١٩٢١ ـ ١٩٥٠) » ٠

وبالطبع ، فان تلك الاشارات العابرة، لم تلزم المؤلف بالغوص في دراسة الجانب السياسي ، الا انه تناول ، في الوقت ذاته ، مسائل ذات اهمية ليست قليلة ، تتعلق بنشوء وتطور الحركة الوطنية الاردنية ، او كما يسميها « تفسير الاخفاق التاريخي لحركة التحرر الوطني الاردنية » ٠

ورغم ان الاشارة العابرة لا تفسح في المجال لمعالجة هذه المسألة معالجة واسعة، فان ما ذكره حول ذلك ، يصلح اساسا لابداء بعض الملاحظات حوله ٠

بعد عرضه لتاريخ التركيب الاقتصادي الاجتماعي ، ابان الفترة الاخيرة من السيطرة ، يخلص المؤلف الى استنتاج يقول « لم تشهد البلاد نهوضا وطنيا ، ولم يشارك ابناؤها في النضال السياسي المناهض للسلطة العثمانية ، ص ٣٧ ٠ والسبب في ذلك ـ كما يراه الكاتب ـ هو « ان الوعي القومي التحرري لم يتسرب الى البلاد ، وبالاصح لم يتجسد في تعابير ملموسة ٠وان الشعارات القومية التي رفعتها الاحزاب والتجمعات القومية العربية لم تكن مؤتلفة مع التكوين الاجتماعي التقليدي (٠٠٠) فظلت هذه الشعارات مظلة سياسية عائمة للسكان المحليين » ص ٣٧ ٠ بيد انه وبعد اسطر قليلة ، يقول « تبرز ثورة الكرك ان الوضع الموضوعي كان يدفع نحو التحرر المناهض للسلطات العثمانية » ويضيف « وجدت حركة الشريف حسين البلاد مهيأة موضوعيا للانتفاض ضد العسف العثماني » ثم يؤكد « لكن التحرك المناهض للعثمانيين اثار حماسة الفئات الاجتماعية الدنيا ، جماعات الحرفيين والتجار ، وبشكل رئيسي الفلاحين وكذلك المثقفين وسكان البلدات والاقلية المسيحية ٠ فقد كان هم اهالي البلاد التحرر من الضرائب والعسف والسخرة واشكال النهب المختلفة » ص ٣٨ ٠ ومن الاقتباسات الاخيرة الواضحة ، يظهر افتقاد الدقة ، والاحكام السريعة حول عدم وجود نهوض وطني ، وعدم مشاركة الجماهير الاردنية في النضال ضد العثمانيين ٠ اما عن تسرب الوعي او عدم تسربه ، وعن ابتعاد الشعارات القومية عن وعي الجماهير ، فان ذلك يدعو الى طرح السؤال الاتي : هل ان وعي الناس، العادي والملموس ، يدخل اليهم من اماكن اخرى ، ام انه انعكاس لوضعهم الاجتماعي الاقتصادي السياسي ، والذي كان يتكون لديهم ويتجلى بأوضح صوره، ابان سيطرة العثمانيين كاحتلال وسيطرة واستغلال وتعسف ؟ ثم كيف « اكتسب الوعي » للجماهير السورية والعراقية مثلا ، حيث انهم كانوا يعيشون نفس الظروف ؟ وهنا نستطيع ان ندرج نفس التساؤل حول ابتعاد الشعارات القومية عن وعي الجماهير ، وكيف ادركتها الجماهير السورية ، او الوطنيين السوريين ، حيث لم يتحقق ذلك في الاردن ؟ وايضا ، فان حوراني بالذات، قد اخبرنا في بداية الفصل الاول عن الوضع في ولاية سورية (ومن ضمنها الاردن) ، وعن توفر اساس نهضتها القومية حين قال « ان اساس وحدتها وشروط تطورها الموحد والشامل كان متوفرا بدلالة نهوضها القومي والنضالي ضد الاستبداد العثماني منذ نهاية القرن الماضي ، وبدلالة تبلور حركتها القومية